التيتوية

للدكتور عمر حليق

ليست التيتوية (نسبة إلى المارشال تيتو عامل يوغسلافيا الشيوعية اليوم) مجرد خلاف عارض بين دولتين شيوعيتين بواعثه خصومة سياسية أو حزازات شخصية بين ستالين وتيتو ، أو اختلاف على زعامة الشيوعية العالمية التي اشترك هذان القطبان الماركسيان في خدمتها سنوات طوالا، أداتها مؤامرة مزيفة بين قطبين شيوعيين يخدمان هدفا واحدا ؛ إنما هي « ردة » ايديولوجية جذورها في خلاف فكري عميق على مسألة دقيقة في التعاليم الماركسية تتعلق بتحديد العلاقات بين الدول اتخذت الشيوعية نظاما لها — تحديد يفسد على موسكو (وهي كعبة الشيوعيين) مركزيتها وسيطرتها المباشرة على النشاط الشيوعي في كل مكان ، ويوفر للدول الشيوعية خارج الاتحاد السوفييتي حرية في التصرف تخالف مبدأ الوحدة الشيوعية العالمية وما تدعو إليه في تحالف وتعاون وتضامن في البدإ والسلوك السياسي بين بعضها بعضا وفي علاقاتها مجتمعة مع العالم الخارجي

ولعل في استعراض حركة المارشال تيتوا الانفصالية عن موسكو ما يلقي ضوءا نافعا على ناحية هامة في العقلية الشيوعية ومستقبل نشاطها في الشؤون العالمية

* * *

انفردت يوغسلافيا من بين الأمم الأوربية خلال الحرب العالمية الأخيرة بأنها الأمة الوحيدة التي استطاعت أن تقهر الاحتلال النازي قبل أن تلوح بوادر الهزيمة على ألمانيا النازية . فبينما أن حركات المقاومة السرية في الدول الأوربية التي احتلتها جيوش هتلر كانت حركات ضعيفة مقيدة النشاط محدودة الأثر .. كانت حركة التحرر من الاحتلال النازي في يوغسلافيا واسعة النطاق فائقة النشاط عمت الأكثرية الساحقة من الشعب اليوغسلافي ومكنته من أن يحتفظ بأجزاء واسعة من بلاده حرة طليقة لم تقو على استعبادها القوات النازية الرابطة في دساكر يوغسلافيا ومعاقلها الرئيسية . وكان عزم اليوغسلافيين وبأسهم

ما عقدت له هذا المقال

المدارس ياسيدي تفسد بناتنا ، وتعلمهن التكشف وتسوقهن إلى شفا المحرمات . وكم من متسترة ما تعلمت السفور إلا في المدارس ، وكم من متمسكة بعادات البلاد وأوضاع الإسلام . ما جرأها على الخروج عليها إلا المدارس

أليست المدارس تجبر البنات البالغات على كشف أفخاذهن في درس الرياضة في المدرسة ؟ ألا يأتي المفتش مثلا فيراهن على هذه الحال ؟ ومن في المدرسة من المعلمين الرجال ؟ ! أليست المدارس تعلمهن الرقص التوقيعي ، وفي الشام رقص السماح . وهو طريق إلى الفاحشة ، وباب من أبواب الفساد

ألا تكشف العورات في العرض الرياضي العام أمام الآلاف من الرجال وتأتي هذه المجلات الآثمة فتنشر صورة ذلك في الدنيا كلها ، حتى يراها كل من لم يكن رآها

والاختلاط في الجامعة ؟ هل يرضى به الإسلام ؟ هل تقره سلائق العروبة ؟ أما رأيتم من مفاسده وشروره ما لا يجوز إبقاءه يوما واحدا ؟

وهذا طرف مما نشكوه من المدارس ، ولقد جاء مرة وزير للمعارف صالح مصلح اسمه مرسي بدر . شرع في الإصلاح ، فخاف لصوص الأعراض أن يسد دونهم الأبواب والنوافذ ، فقاموا عليه حتى أخرجوه . فخذ ياسيدي بالإصلاح فهذا طريقه ، واقض على الفساد فهذا رأسه ، واقطع شجرة الشر من جذورها ، فإن الرجاء منوط بك ، والأمل معقود عليك ، وإلا تستطع ذلك لم يستطعه أحد بعدك

أخذ الله بيدك ، وسدد خطاك ، وجزاك عن الحق والحرية والشعب والأخلاق خير الجزاء ، وجعل كل رجال الانقلابات ، وأصحاب السلطات ، مثلك

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

دمشق

(ع)

فى مقاومة الاحتلال الألمانى على أشده حتى بعد أن رضيت الحكومة اليوغسلافية الشرعية آنئذ أن تهادن النازية وتتعاون معها وتخضع لمشيئتها . وقد حقق هذا العزم لحركة التحرر جيشا منظما وجهازا إداريا انتزع السلطة من الحكومة اليوغسلافية الشرعية التى أصبحت آلة فى يد القوات النازية المحتلة ، وما إن لاحت بوادر الهزيمة الألمانية فى الميادين الأوربية الأخرى حتى أسرع هذا الجيش اليوغسلافى الحر وجهازه الإدارى المنظم فطرد الألمان إلى غير عودة ، وأقصى معهم الحكومة اليوغسلافية الشرعية التى تعاونت معهم — بما فيها النظام الملكى الذى فر من الميدان فى وقت مبكر

ومع أن حلفاء الغرب كانوا يمدون جيش التحرر اليوغسلافى ببعض الذخيرة والعتاد العسكرى والمونة الأدبية إلا أن الفضل فى انتصاره يعود إلى وطنية الشعب اليوغسلافى وتضحيته فوق كل شئ آخر . وعلى ذلك ظل اليوغسلافيون مؤمنين بأن تحريرهم لبلادهم من سيطرة النازية كان مجهودا يوغسلافيا بحتا لا فضل لأحد فيه — لا لحلفاء الغرب ولا لروسيا السوفيتية

إلا أن انشغال ستالين ومكتبه السياسى بالحرب النازية ومعارك الشتاء على حدود موسكو ولينغراد لم تله صناع السياسة الشيوعية الروس عن مراقبة مستقبل القارة الأوربية — ومستقبل يوغسلافيا على وجه الخصوص من حيث أنها منفذ حسن لمياه البحر الأبيض المتوسط الدافئة على رمية حجر من الشاطئ الأفريقى الذى كان ولا يزال يحتل مركزا هاما فى خطط العسكريين والمسؤولين عن سياسة الحرب فى التاريخ المعاصر . أضف إلى ذلك أهمية اكتساب بلد كيوغسلافيا كقاعدة شيوعية فى منطقة البلقان التى كانت ولا تزال حدا رئيسيا من حدود المجتمع الشيوعى الأكبر التى نصبت روسيا السوفيتية نفسها وكيلة بتشييده محققة بذلك تعاليم ماركس وشروح لينين وستالين عليها مما لا يتسع المجال فى هذا المقال لاستعراضه

وقد ساعد روسيا السوفيتية على دوام الاتصال بالتطورات فى الوضع اليوغسلافى خلال الحرب العالمية الأخيرة ذلك النشاط الواسع الذى قامت به العناصر الشيوعية اليوغسلافية فى محاربة الاحتلال النازى متعاونة مع العناصر الوطنية اليوغسلافية الأخرى على نحو ما فعلته العناصر الشيوعية فى الصين عندما تآلفت مع العناصر القومية فى محاربة الاستعمار اليابانى وغزوه المسلح للقارة الصينية

ولقد لعبت الحركة الشيوعية فى يوغسلافيا أدوارا مماثلة لتلك التى قامت بها الحركة الشيوعية فى الصين من حيث أنها تسربت إلى القوات المسلحة والجهاز الحكومى والسلطة الشرعية التى كانت تحارب الاحتلال اليابانى ، فما إن تمت هزيمة النازيين حتى قامت العناصر الشيوعية فى يوغسلافيا باستخلاص الحكم والسلطة من الحكومة الشرعية والقضاء على النظام الملكى والعناصر التى كانت تسانده؛ وتلك التى تعاونت مع الألمان الغزاة . وكان المارشال تيتو — زعيم الحركة الشيوعية فى يوغسلافيا — وثيق الصلة بستالين وبالقيادة العليا للحركة الشيوعية العالمية التى كان المارشال اليوغسلافى من أبرز أعضائها ، إذ سبق له أن مثلها لدى الجيش الشيوعى الإسبانى خلال الحرب الإسبانية الأهلية التى انتهت بفوز الجنرال فرانكو على خصومه الشيوعيين

وأخذ المارشال تيتو يطبق فى يوغسلافيا ما تلقنه من تعاليم ماركس وشروح لينين وستالين عليها عندما كان المارشال لاجئا سياسيا فى موسكو وصديقا شخصيا لستالين

وفى يونيه عام ١٩٤٨ — بعد ثلاث سنوات من استتباب النظام الشيوعى فى يوغسلافيا فوجئ العالم بخصومة علنية بين تيتو وستالين ، وقطيعة حادة بين روسيا السوفيتية ويوغسلافيا الشيوعية ، شغلت العالم فى تلك الآونة وكانت حديث الناس فى كل مكان

فلأول مرة فى تاريخ الحركة الشيوعية يشق عضو من أبرز أعضائها عصا الطاعة على موسكو ويعرض نفسه وبلاده لخطر « التأديب » الروسى الذى كانت جيوشه على حدود يوغسلافيا فى البلقان وأوربا الوسطى الخاضعة للنفوذ السوفيتى

ولكن يوغسلافيا ومارشالها استطاعا أن يحتفظا برأسيهما عاليين فوق الماء، وأن يضمنا لونا من المؤازرة العسكرية والسياسية من المعسكر الغربى — خصم الاتحاد السوفيتى — رغم أن يوغسلافيا ظلت بلدا شيوعيا فى أنظمته ومبادئه وأهدافه ومراميه

ولأول مرة سجلت قواميس اللغة كلمة « التيتوية » علما على

الشيوعية « القومية » التى تعيش على نظام ماركسى بحت، ولكنها لا ترتبط بالحركة الشيوعية العالمية عن طريق مركزها الروحى والإدارى فى موسكو

وليس المهم أن نتعرف هنا دقائق المراحل التى تمت بها هذه القطيعة بين البلدين الشيوعيين — بين موسكو والمارشال تيتو زعيمها السابق [١]، إنما المهم أن نأخذ بما يؤكده معظم الخبراء فى شؤون يوغسلافيا من أن هذه القطيعة قد تمت وأنها ليست مزيفة كما يعتقد بعض الناس

ووجه الخطورة فى هذه القطيعة أنها تستند إلى خلاف جوهرى على مبدإ أساسى من مبادئ الفكر الماركسى.. ألا وهو تحديد السلطة المركزية التى يمارسها « الوطن الأم » وهو أول بلد يتوطد فيه النظام الشيوعى — على بقية الدول الشيوعية التى تنتمى إليه بالولاء وتشاركه فى السلوك وتؤمن بما يؤمن به من ضرورة تشييد المجتمع الشيوعى الأكبر فى هذا العالم المترامى الأطراف

ذلك لأن المارشال تيتو وأعوانه فى الحكم لايزالون يؤمنون ويطبقون التعاليم الشيوعية كاملة فى يوغسلافيا، ولايزالون يعتقدون بأنها أفضل النظم للعالم بأسره، ولا يزالون تواقين لمناصرة الحركات الشيوعية فى كل مكان كما تشهد بذلك مواقف الحكومة اليوغسلافية فى هيئة الأمم وفى خارج هيئة الأمم فى دفاعهم عن وجهة النظر الشيوعية فى معظم المشاكل الدولية التى دعيت يوغسلافيا لإبداء رأى فيها، أو تولت — غير مدعوة — لإبداء الرأى، [٢] ولكن المارشال تيتو يرفض أن يمثل زعامة موسكو وهذا الرفض هو سر القطيعة بين تيتو وستالين

ومما لا ريب فيه أن هذا الخلاف مبعثه حدة القومية اليوغسلافية ورفضها الانقياد لدولة أجنبية حتى لو كان فى ذلك خروجا على المبدإ الماركسى الذى يصر على العمل الموحد والتناسق الدقيق بين الوطن الشيوعى المركزى « وهو الآن الاتحاد السوفيتى » وبين الدول الشيوعية المنتمية اليه كما يعترف وزير الدولة اليوغسلافى « ميلوفان دجيلاس » فى عدد ابريل سنة ١٩٥١ فى مجلة الشؤون الدولية اللندنية

ثم إن هناك تطورا آخر على قسط كبير من الأهمية فى مستقبل الحركة الشيوعية العالمية عقيدة وتطبيقا لتطور مجسم عن القطيعة بين موسكو والمارشال تيتو، وهو أمر يمس صميم التعاليم الماركسية وشروح لينين وستالين عليها — وهى إنجيل الشيوعيين فى كل مكان. فالحركة الشيوعية فى يوغسلافيا تمر الآن فى انقلاب فكرى خطير مبعثه نضال المارشال تيتو لبناء المجتمع اليوغسلافى على أسس ماركسية صادقة دون أن ينتظر العون والتأييد والإرشاد والتوجيه من الاتحاد السوفيتى ومن « الكومنفورم » [٣] الذى هو فى الواقع دائرة عظيمة النفوذ تابعة لوزارة الخارجية الروسية. ولقد وجد المارشال تيتو نفسه منفردا فى مسعاه يواجه تحديا عنيفا فى منطقة النفوذ الشيوعى فى أوربا الشرقية والبلقان ويتقاعس عن الارتماء كليا فى أحضان المعسكر الغربى

ولكن الغزل السياسى والدبلوماسى الذى أخذ يزداد فى الآونة الأخيرة بين يوغسلافيا وبين دول أوربا الغربية وأمريكا الشمالية شق الطريق إلى صميم المجتمع اليوغسلافى الشيوعى وحمل إليه ألوانا من الفكر والأدب والفن الغربى « الرأسمالى » فأوجد تشويشا فى الفكر والثقافة والعقيدة الشيوعية السائدة بين ولاة الأمور فى يوغسلافيا وبين طبقات المجتمع اليوغسلافى. فالأفلام الأمريكية، والقصص والبحوث الفرنسية، والصحف والمجلات البريطانية، وجوقات الموسيقى والمسرح الأوربية والأمريكية.. أصبحت الآن أشياء مألوفة لدى المواطنين اليوغسلافيين، بعد أن انقطعت صلتهم بالحياة والفكر الغربى عشر سنوات طوال

ونتج عن هذه الغزوة الثقافية أن تأثر عدد من أبرز أعضاء

---

(١) أصدرت جامعة هارفارد مؤخرا دراسة ضافية عن هذا الموضوع

(٢) تصدر الحكومة اليوغسلافية مجلة خاصة بالشؤون الخارجية تسجل فيها آراءها فى المشاكل الدولية وتطبع بغير اللغة اليوغسلافية للاستهلاك الخارجى منافسة بذلك مجلة (الكومنفورم) لسان حال القيادة الشيوعية العالمية

(٣) الكومنفورم هو الاسم الجديد للقيادة العليا للحركة الشيوعية العالمية. وكانت هذه القيادة تعرف إلى ما قبل الحرب العالمية الأخيرة باسم آخر هو « الكومنترن » إلى أن ارتأى ستالين الغاء هذه القيادة دفعا لأذى الدول الرأسمالية فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأخيرة وخلال سنوات الحرب. ثم أعيد تشكيل هذه القيادة للحركة الشيوعية العالمية فى سنوات ما بعد الحرب وأطلق عليها اسم « الكومنفورم » ولها لسان حال يصدر بانتظام فى لغات أجنبية عديدة

الحزب الشيوعى فى يوغسلافيا ، وصناع السياسة وقادة الفكر فيها بهذه التيارات الفكرية ، وظهر هذا التأثير فى موجات من النقد الخافت الموجه إلى النظام الشيوعى وأساليب تطبيقه ؛ الأمر الذى أزعج المارشال تيتو وأعوانه الخلص من الماركسيين المتعصبين للتعاليم الشيوعية . وقد أعرب عن هذا الانزعاج المارشال نفسه فى خطاب ألقاه مؤخراً (٤) ، ندد فيه بهذه الشعوبية وود لو أن يوغسلافيا طهرت نفسها من هؤلاء الشعوبيين ، حتى لو استدعى ذلك إقصاء مائة ألف شخص من عضوية الحزب الشيوعى .. وهذا تعبير يعكس ما يعترى المارشال من قلق وانزعاج

وكرر (موشى كرولجى) وزير خارجية تيتو هذا التنديد فى تصريح آخر حذر فيه هؤلاء الشعوبيين بأن من حق الدولة الشيوعية ومن واجبها أن تضع حدا للتيارات الشعوبية التى أخذت تنتشر فى أوساط المجتمع اليوغسلافى بفعل البضاعة الفكرية الواردة من أوربا الغربية وأمريكا الشمالية

وقد عزز المارشال تيتو القول بالعمل ، فأخذ يقصى عن مراكز الحكم نفرا من أهم أعوانه من الذين ألموا بهذه الشعوبية لكنه لم يستطع أن يضع حدا لهذا الاتجاه الطارئ ، فلم يفرض رقابة على البضاعة الفكرية الواردة من أوربا الغربية وأمريكا الشمالية خشية أن يفقد عطف المعسكر الغربى بعد أن اختار القطيعة التامة مع المعسكر السوفيتى

ولم يجد تيتو بدا من أن يلجأ إلى المساومة . فاختار نفرا من قادة الفكر الشيوعى فى يوغسلافيا وكلفهم بوضع تفسير جديد للتعاليم الشيوعية يوفق بين جوهر الفلسفة الماركسية وبين بعض النظريات والبادئ السياسية والاقتصادية والثقافية التى تعيش عليها الدول والمجتمعات فى أوربا الغربية والعالم الجديد (٥) وتوخى هذا التفسير الجديد أهدافا محدودة منها التأكيد بصلاح الشيوعية لتشييد المجتمع المثالى ليوغسلافيا ولجميع الشعوب ومنها رفض أساليب ستالين ومكتبه السياسى وسياسة « الكومنفورم » لبناء المجتمع الشيوعى . انتقدها انتقادا لاذعا ووصف الاتحاد السوفيتى بأنه دولة استعمارية سلاحها البطش والعدوان

ومن هذه الأهداف كذلك تحرير الجهاز الحكومى فى يوغسلافيا الشيوعية من المركزية الصارمة ، واقتباس نواح من فن الإدارة «الديمقراطية» المصطلح على اتباعها فى الغرب ، بحيث تنتقى من المارشال تيتو وحكومته التهم « الديكتاتورية » الموجهة اليه من أوساط الغرب ومن بعض الأوساط اليوغسلافية التى تأثرت بالغرب وآرائه ومعتقداته وتحليلاته السياسية عن الوضع اليوغسلافى

وأخذ التفسير اليوغسلافى الجديد للشيوعية يتفلسف ما استطاع ليجعل من المارشال تيتو صورة تخالف الصورة المعهودة فى الغرب عن ستالين ؛ وهى صورة الحاكم المستبد الذى لا مرد لأمره ، والذى يستند فى تنفيذ مآربه إلى جهاز دقيق من البوليس السرى ، فيتعقب الناس ويسترق آراءهم ويبطش بهم إذا ألمت بهم شعوبية أو أضمروا سوءا للعهد القائم

وخلاصة القول فى هذه الإيديولوجية الشيوعية الجديدة التى يحاول تيتو بواسطتها التوفيق بين ماركسيته ورأسمالية أصدقائه الجدد فى المعسكر الغربى .. أنها كما قال وزير الدولة اليوغسلافى « ميلوفان دجيلاس »

«استنباط فكرى لاسابق له . فبلادنا الصغيرة (يوغسلافيا) بلاد جريحة ولم يكتمل نموها بعد. وعليها (٦) أن تناضل لالتنمية مرافقها فحسب بل لصيانة كيانها القومى »

* * *

أليست هذه المحنة التى دفع إليها الشعب اليوغسلافى أشبه بالمحن التى تنتاب معظم البلدان فى آسيا وفى شرقنا الأوسط ؟ — بلاد متخلفة تحاول أن تنمى مرافقها وتقوى كيانها القومى فى آن واحد ، وفى وجه تيارات سياسية واقتصادية وثقافية تهب عليها من الفريقين المتخاصمين اللذين يهيمنان على مقدرات العالم هذه الأيام

نيويورك

عمر مليحى

(٤) ابريل سنة ١٩٥٢ فى حفل من الشبيبة اليوغسلافية

(٥) فى بحث عن « آراء حول تيتو » نشرته مجلة الإيكونومست البريطانية فى عدد ٣١ مايو سنة ١٩٥٢

(٦) الإيكونومست ٣١ مايو سنة ١٩٥٢